الجزء الرابع

الرسائل 9-10

أختي الحبيبة رجاء،

ما هذا الصمت؟ أنتظرشيئا منك بفارغ الـصبر.. أريـد أن أطمـئن علـى صحتك، وأنا قلقة أن تكون قد أثرت بك رحلتك الى بيروت..

كيف أنت يا رجاء؟ أشواقي وحنيني اليك أعمق من أن تفي بها رسالة..

افرحي يا أختاه فعائلتنا تلتئم.. وصلت ماما عصر هذا اليوم، وشـهدت لـي المهارة في الطهي.. ان الدنيا لا تسعني لفرحي..

نذكرك كثيرا فيما بيننا يصفك خالد بأنك أجملنا وجها، وأفضلنا خلقا، وألمعنا ذهنا.. فأثور به حانقة: "الآن عرفت قيمتها! بودي لو كنت تدرك ذلك وهي بقربنا، فلا تصب عليها جام غضبك، وتسيء اليها بكلماتك اللاذعة.. والآن أقسم أنها لـو عادت لعدت الى سابق عهدك ومعاملتك!"..

لست أدري لم جبل الإنسان على هذا الطبع.. لا يعرف معنـى الأخـوة ولا يفهم رباطها المقدس الاّ عندما يبتعد عن أخيه.. فيسكب من حنان قلبـه كاسـا لا يشربها منه البعيد عنه، ولو صبها لأخيه عند وجوده لأنعشت زهـرات المحبـة ولحلا مذاق الحياة..

لسنا نفهم فن الحياة وفن المعاملة للقريب.. ولو عرفنا أن الـسعادة لاتجنـى بمجد أو شهرة اجتماعية، ولا بمال وافر، بل في المنزل وفي التـرابط الأسـري لعرفنا كم نسيء الى علاقاتنا العائلية ونسمم جوها بسخافاتنا..

على كل حال تغير خالد كثيرا عن قبل، فهو أرزن وأحكم مما كان عليه في صغره! وهو يجد في دروسه ليكمل المرحلة الثانوية، ولقد سجل نفسه منذ وصـل في كلية خاصة، مستقرضا المال من عمتك!

اننا مدعوون في الغد الى مأدبة عند ابنة عمتك فوزية وأنـت لاتعرفينهـا، وزوجها صاحب مكتبة، وهو ظريف حلو النكات، مغرم بأفلام يوسـف وهبـي.. ومن يعرفه يظنه شبيها به!

ملاحظة: وصلتنا رسالة مقتضبة من عبد الرحمن بأنـه وفّـق الـى عمـل محاسب في الغرفة التجارية ولكن المرتب ضئيل بسبب الظروف..

سلمى

* * *

رجائي الغالية،

لست أدري لم أحلم بعين اليقظة في هذه الأيام أني واياك نسير في شـوارع دمشق، نحقق الأحلام الحلوة التي طالما داعبت خيالنا.. ورغـم ذلـك فالـسرور يغمرني عندما أتخيلك هناك مغتبطة بعيدة عن متاعب الحياة..

انني بدونك أشعر كطائر مهيض الجناح.. فما أسعد الانسان الذي يجد قربـه من تأنس روحه به.. أكاد أكون منزوية في أهم مشاعر نفسي.. أواه كم أنا بحاجة الى حماسك الحبيب يا أختاه!..

كانت رسالتك الأخيرة محتجزة في البريد، وما راجعهم أحـد مـن أخويـك لانشغالهما الشخصي..

ماذا تقولين؟ لا، لا تحنقي على نفسك.. آسـرة فـي عـذوبتها وحرارتهـا كلماتك.. ما ألطف ما تلامس القلب! وأروع ما فيها أنها لا تتكلـف ولا تـشعر بذاتها.. حرارة الصدق والعاطفة تتوهج بها رسائلك فاستمري.. فهذه الخطـوات الأولى تبشر بموهبة كامنة فيك ربما فاقتني ذات يوم..

كم أتمنى لو تقيدي خواطرك.. ولكنني أخشى عليك مغبة اجهـاد فكـرك.. فليكن همك أن تجاري طبيعتك النفسية في مدها وجزرها بلا قسر فيغدو التعبيـر متعة لك ومصدر شفاء..

هل أخبرك يا أختي أنني تهت في بيداء من وعود لم تحترم.. وورطت معي الجميع؟

لست أدري كيف حدث هذا!.. أعن نسيان أو اهمال؟ لا يمكنني الاّ أن أحترم الشخص الذي وعد وأثق به، وما أشك أبدا في هذا الحدس الذي ورثته عن مامـا في تقييم الناس بما يستحقون، وما أظنه الاّ أنه سيضع الأمر في نصابه حين يعود من اجتماع "اليونسكو" في بيروت..

سارت المعارف على سياسة "ارضاء" وقسمت الساعات الشاغرة على عـدد من المدرسات فكان نصيبي ثلث ما وعدت به..

استشطت غضبا، وكان غضبي حقيقيا حتى لأكاد أشعر بالدمع يطفـر مـن عيني قهرا، وبحرارة الإنفعال تلهب وجهي.. أواه يـا أختـاه، أترانـي لا أدري بموقفك الحرج.. أعلم أن أهون ما تحدثينا به متاعبك.. ولكن يكفيني ما تلمحـين لأدرك الأمر على حقيقته، وليتفطّر بالألم قلبي..

طلبت العودة الى اللاذقية في الحال، وبقيت أنتظر الرد وأنا على أحر مـن الجمر وأراقب الوكيل غارقا حتى أذنيه بين مكدسات الأوراق.. دولابا لا يكلّ ولا يفتر.. ورحت أعد المرات التي تناول فيها سماعة التلفون محتدا والكذبات يكيلهـا جزافا بأنه ليس موجودا، والمماطلات يرمي بها الى الرفّ، وسرعته الكلامية في الدقيقة.. وما تمالكت نفسي الاّ أن صدرت مني ضـحكة مكتومـة.. فلاحظنـي وسألني ما خطبي فما كتمته رأيي فيه ونتيجة حسابي.. فضحك: "أتنتقدينا؟.. انني أقوم بعمل أربع.. و.."

- انني أعذرك بكثرة المشاغل، فما يحسن أن يرهقوك هكذا.. ولكن تـدبير الشؤون يجب أن يكون على غير هذا الشكل.. ابرام سـريع.. نعـم أو لا.. وتعني نعم نعم، ولا لا!"..

- لا نستطيع أن نغضب الناس.. ورن جرس التلفون فلم يرد عليه وقلت:

- ليرض من يرضى وليغضب من يغضب.. أو لـيس هـذا أفـضل مـن موضوع معلّق؟

- يأتي أحدهم ويقول لك "لقد أخذ الدستور على عاتقه تعليم الجميع وولدي لا يجد مكانا..

ويدخل بعض طالبي الحاجات فيكفّ..

وعود صعبة التنفيذ.. ومسؤولية موزعة..
والسوري رقيق الشعور، لا يحب أن يجرح أحدا..!
يا رجاء أغلقي كتاب "ديل كارنجي" وتعالي الى دمشق.. "أكسفورد" الكـلام المعسول والمجاملات وتطييب الخواطر.. ولكن لا، لا أحب لك فـن "دهـن القشطة"
وجاء الرد من اللاذقية، فناولني الوكيل السماعة الأخرى.. وانساب صـوت من بعيد رقيق اللهجة لبق الإعتذار "ما كنا نرضى بالآنسة سـلمى بـديلا.. ولكنها تركتنا.. اعتذرت بظروف قاهرة وقبلنا اعتذارها.. وكنت أتمنى لو لم يشغل مكانها لأفعل شيئا.. أما الآن فيؤسفني جدا أن أقف مكتـوف اليـدين إزاءها!"..
كان موقفا لا أنساه، وانحاز الى جانبي الموجودون وحاولو إرضائي بحلول أخرى ففشلوا.. انني عنيدة، ولا أرضى أبدا بحلول وسط.. ولم يبـتّ فـي أمري حتى يعود المسؤول..
صدر تعييني في الثانوية الثانية للتدريس، بشكل مؤقت وكان مـديرها أحـد الرجلين اللذين دخلا عند الوكيل وهو يتحدث مع اللاذقية.. وهو ميال للتجدد رغم تقدم سنه، شهم كريم في معاملتي.. ولقد غاظه تصرف الوزارة معـي وأضاف شكواي الى مواضيع شكواه الدائمة من سياسة المركزية التي تسير عليها الدوائر.. فالمدراء مقيدون دائما برغبات المسؤولين الكبار، وليس لهم حرية التصرف في شؤون اختصاصهم، فما تطلق أيديهم في التنظـيم بمـا يسهل المصالح ويخفف من أعباء المسؤولين ليتفرغوا لمشاكل أعم وأنفع..
أوثقت الطالبات الي بوثاق من حديد.. وحين تبدأ العلاقات على أساس الحب والتفاهم سهلت مهمة المدرسة الى أبعد حد..
أحدثك بكل هذا حتى لا يفوتك العالم الحركي الذي أحياه.. انه مسلّ للمتأمل.. ولكنني لا أكتمك أن عالم الرجل عالم لا يحسد عليه.. وليس مثله أبعث على توتر الأعصاب والملل.. ما أغبى الفتاة أو المرأة التي تزج نفسها في مثـل هذا الأتون!.. أشعر بنظرتي تتبدل.. لا يارجاء.. ما يجب أن نتخلّـى عـن

أنوثتنا، رحمة بنا وبالرجل المسكين المرهق.. ما يجب أن نمتحن بما يمتحن به لنحتفظ بعبقرية الحب والحنان والحيوية والهدوء التي تميزنا.. فنكون لـه حافزات ملهمات، والاّ مات الرجل وبكينا رجولته المنتقصة بمنافستنا لـه.. وأما اذا عملنا فليكن عملا أقرب الى الهواية ولا يفقدنا ما نعتز به!..

سلمى

أختي الحبيبة سلمى،

في كل يوم عندما تنزوي الشمس وراء الأفق، تذكري أن هناك في مكان بعيد فتاة تصلّي.. تصلّي من أجلك يا حبيبتي، ليحميك الله من كل سوء، لترعاك عينه الساهرة، ليبارك كل خطوة من خطواتك ويوفقك..

آه يا أختي، لا أدري لم أبعدني الله عنكم، لم فرق شملنا، أتظنين أنني مرتاحة ومغتبطة؟ ليتني كنت معكم أشارككم في كل شيء، وأخفف معكم عبء هذه الحياة القاسية.. اذن لكنت حقا سعيدة..

البارحة كان عيد الميلاد ولقد زينوا لنا مغارة بأبدع زينة.. و كـان البـرد شديدا فلم أترك فراشي لأشهدها.. واذا بمامير خارجة من عمارة الأطفـال وقـد وزعت عليهم اللعب والهدايا ودخلت غرفتنا.. وما أن رأتني وحدي حتى أمسكت بيدي وجذبتني الى "دير الراهبات" ولم أفهم ما تريد واذا بها تنتقـي لـي دميـة وبهلوانا ولوح شوكولاتة وهي تتحدث بما لا أفهم.. وضحكت وأنا أشير لها بأنني كبرت ولم أعد طفلة، ولكن احدي الراهبات غمزتني وهي تقول: "ملكة الإنكليـز كانت تلعب بالدمى وهي أكبر منك سنا".. لقد خطر ببالي حينذاك أن أبعث بالدمية الى سعاد والبهلوان الى هشام فسيسران حتما بهما، واستبقيت الشوكولاتة لنفـسي أتحلّى بها، واستودعت اللعبتان عند راهبة قسمنا حتى يزورني أحد منكم، بعد أن شكرت ما مير وقلت لها كلمة بالعربي وكلمة بالفرنسي: "أختي سلمى تسلّم عليك كثيرا في رسائلها الي!" ففهمت وضحكت وأدركت من لهجتها وحديثها أنها تـسلّم عليك كثيرا وتتمنى لك دوام العافية..

رجاء

* * *